
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

دراسة العدد

علاقة الزمان بالمكان فى العمل الأدبى

« زمكانيــة باختين »

د . امينة رشــيد

قد اشتهر « باختين » فى خضام المعركة الأدبية التى عارضت بين المــاركسيين ومن ســميوا « بالشــكليين » فيما بعد ، منــذ بدايات العشرينات فى الاتحاد السوفيتى ، حينمــا حاول « باختين » استخراج المفيد من انجازات « الشكليين » كى يثرى به المنهج الماركسى فى الدراسة الأدبية ، القائم على ربط الأعمال الفنيــة والأدبية بظروفها الاجتماعيــة والاقتصادية . ثم « نسى » « باختين » مع من تجاهلتهم الســـيطرة الســتالينية على النقـــد الأدبى وانتشار المــاركسية الدارجــة « البيلخانوفية » . وبعد اختفاء طويل ، ظهر من جديد ، فى بلده أولا ، ثم ترجم بالفرنسية والانجليزية . وتزداد مكانته الآن فى العالم أجمع ، بعد الفشل الجزئى للمنهج البنائى ، الناتج عن عجزه فى الفهم الشــامل للانتاج الأدبى ، رغم اسهامه المؤكد فى دراسة كثير من تقنيات الأعمــال الأدبية وتطويره لمنهج الدراسة نفسها . أما الآن فيدرس فكر « باختين » فى كثير من الجامعات ، الفرنسية والمغربية ، على سبيل المثال ، وقــد انشأ معهــدا للدراسات الباختينية فى كندا ، يصــدر مجلة تحت اسم « مجلة الدراســات الباختينية » . وبدأت تظهر فى العالم العربى بعض الترجمات بالعربية « لباختين » : لجمال شهيد فى ســوريا ولمحمد برادة فى المغرب ، مثلا(١) .

ولكن رغم هــذا الانتشار السريع فما زال بعض الغموض فى فهم فكر « باختين » وكتاباته . ولا يســاعد الناقد نفسه على ازالة هــذا الغموض . فتظهر التناقضــات فى أهم أعماله ، كمــا تتداخل التيارات

الفكرية ــ الماركسية ، الرومانسية الألمانية ، التنوير الفرنسى والألمانى ، وحتى الظاهرتية (الفينومينولوجيا) والفرويدية ــ لتبهرنا احيانا ، وتتركنا دون جواب لأهم الأسئلة فى أحيان أخرى . حتى يصل « تودوروف » ، وهو من أهم نقاد وقراء « باختين » بالروسية ، ومن أبرز مترجميه بالفرنسية ، الى أن « باختين » قد تخلى عن التخصص فى النقد الأدبى كى يدرس فقط علاقة الأدب بالثقافة العامة ، اى يركز على دراسة الأدب كنظام دلالى مرتبط بأنظمة دلالية أخرى(٢) .

وقد استثنى « تودوروف » من هذا « التخلى » المزعوم مجالين اعتقد أن « باختين » قد استفاض البحث فيها :

١ ــ « حوارية » الأعمال الأدبية والروائية منها اساسا ، اى علاقة المتكلمين بعضهم ببعض ، علاقة الراوى بالشخصيات ، وعلاقاتهم جميعا بمستقبلى الأعمال ، (فى الماضى والحاضر والمستقبل) . وهذه النقطة قد اثرت الدراسات اللغوية .

٢ ــ « زمكانية » هذه الاعمال ، اى تنظيم العالم الروائى عبر بناء الزمان والمكان وتلازمهما . « فالزمكانية » ترجمة لكلمة ادخلها « باختين » فى الدراسة الأدبية وهى كلمة « كرونوتوب » التى كانت مستعملة فى الرياضيات وتعبر عن العلاقة الضرورية بين المكان والزمان (من اليونانية : « كرونوس » اى « الزمان » . وتوبوس » اى المكان) .

وبما أن هذا المفهوم من أهم المفاهيم التى تساعد على فهم الاعمال الأدبية ، وفى محاولة توضيح لمعالمه التى مازال يسيطر عليها بعض الصعوبة ، حاولت أن أفهم « زمكانية » « باختين » عبر متابعتها فى أهم أعماله التى ظهرت فيها ، وفى جميع أطرها وسياقاتها ، كى أستطيع أن أبلور دلالة اللفظ فى مفهومه وفى امتدادته ، واستخرج من ذلك مدى امكانية استعماله فى تحليل الأعمال الأدبية . ووصلت فعلا الى بعض النتائج التى أقدمها هنا لقارىء السطور التالية .

توجد « الزمكانية » منذ بداية انتاج « باختين » « النقدى فى نص كتبه فيما بين ١٩٢٢ و ١٩٢٤ وعرف تحت عنوان : **النص والبطل فى الأداء الجمالى** . تظهر هنا علاقة الزمان بالمكان بشكل غير مباشر ، عبر بناء مفهوم البطل الروائى . فالبطل ، اى الشخصية الروائية ، ذو بعدين ، حسب « باختين » ، احدهما مكانى ، اى جسد الشخصية ، هذا الجسد الذى يراه فى المرآة ويعكسه نظر الآخرين له ، والآخر

زمانى ، وهو مكون من « روح » الشخصية الروائية ، أى شمولها منذ نشأتها حتى موتها(٢) .

ومع ذلك لم يتحدد المفهوم عند « باختين » قبل الثلاثينات فقام « باختين » فى هذا الحين بدراسة « لجوته » ، لم تصل لنا ، وبدراسته الشهيرة عن « رابليه » ، التى أظهر فيها « زمكانية » انسان النهضة الجديد ، التى فصلت بينه وبين انسان العصور الوسطى الفرنسية . وقد تبلور المفهوم أخيرا — وليس آخرا — فى أهم أعمال « باختين » النقدية، وهى دراسة طويلة عن «أشكال الزمان و «الزمكانية»فى الرواية» تحتوى نحو ١٥٠ صفحة من كتابه عن **جماليات الرواية ونظريتها** . فهذه الدراسة مكونة حسب تعبير « باختين » من « مقالات فى نظرية الأدب التاريخية » . ونقرأ أخيرا ملاحظات نهائية لباختين من علاقة الزمان بالمكان فى العمل الأدبى فى الجزء الثالث لدراسته عن **رواية التعليم ودلالتها فى تاريخ الواقعية** تحت عنوان « الزمان والمكان » ، وتوجد هذه الدراسة الأخيرة فى **جماليات الابداع الكلامى** ، التى صدرت ترجمتها بالفرنسية فى ١٩٨٤ .

ماذا نستطيع أن نستنتجه من قراءة هذه الدراسات فى مفهوم « باختين » لعلاقة الزمان بالمكان فى العمل الأدبى ، وهذا يعنى الناقد بادخاله لكلمة « الزمكانية » فى الدراسة الأدبية ، الذى لا يقل قبحها الصوتى بالعربية عن غلاظتها بالفرنسية : « كرونوتوب » ؟!

تعطينا القراءة الأولى شعورا بالفوضى والثراء فى آن واحد . فنجد التعريفات المتعددة ، المختلفة المستويات ، « للزمكانية » . فمنها التعريف المنهجى الخاص بالدراسة الأدبية ومنها التصوير لبعض المواضيع و « الموتيفات » المقتبسة من الأعمال الأدبية ذاتها ، ومنها أخيرا المبادىء المنظمة للعمل الأدبى . تندمج الأمثلة الكثيرة المأخوذة من الأدب العالمى — وكان « باختين » قارءا مفترسا للأعمال — مع اعتبارات نظرية تعكس ثقافة الناقد الواسعة والمتنوعة . يتعاون التأريخ مع التحليل التجريبى والمبادىء النظرية ، فلقدا هذه أحيانا ، مغايرا للنظرية فى سياقات أخرى . واستطعنا مع ذلك عبر التعميق فى القراءة الثانية ثم الثالثة ، أن نحصر الخطوط الأساسية للسياقات الثلاث التى اشرنا اليها :

١ — « الزمكانية » مفهوم فلسفى استعاره « باختين » من العلوم الرياضية .

٢ ـــ « الزمكانية » تصوير لبعض المواضيع و « الموتيفات » الأساسية التى يظهرها الأدب فى تاريخه الطويل منذ العصور اليونانية حتى الرواية الأوروبية الحديثة .

٣ ـــ « الزمكانية » مبدأ أساسى لتنظيم العمل الأدبى تبلور مع تطور الوعى بالزمن التاريخى الذى ظهر فى عصر النهضة ونضج فى القرن الثامن عشر (اى عصر « التنوير ») لينعكس فى الأعمال الأدبية الحديثة منذ أواخر القرن الثامن عشر .

فهل هناك علاقة بين هذه الاستعمالات الثلاث لمفهوم «الزمكانية» ؟ وكيف نستطيع أن نستعمله ونثريه عبر دراساتنا لبنيته ، ونساهم هكذا فى بلورة وانضاج النظرية الأدبية نفسها ، التى مازالت فى طور التكوين ؟

١ ـــ المفهوم الفلسفى « للزمكانية » :

تتضمن « الزمكانية » عند « باختين » جزءا فلسفيا بحتا ، وقد استعار اللفظ من اصوله العلمية والفلسفية ، وجزءا خاصا بالعمل الأدبى ، ينبغى منذ البداية ان نوضح العلاقة بينهما .

(أ) يقول « باختين » : « سوف نطلق تسمية « الزمكانية » (الكرونوتوب) على ما نستطيع ان نترجمه حرفيا و « زمكان ـــ مكان » ، وهو الربط الأساسى بين العلاقات « الزمكانية » كما استوعبها الأدب»(٤) .

صرح « باختين » بأنه قد استعار المفهوم من لغة الرياضيات أوبمعنى أدق من نظرية « أينشتاين » للنسبية . وسوف يضيف فيما بعد الى هذا الأصل العلمى اصلا فلسفيا للمفهوم وجده فى كتاب « كانت » عن «الجماليات الفوقية » Eshetique transcendeutole ، فى احدى الأجزاء الأساسية **لنقد العقل الصافى** : « فالزمان والمكان تعتبر مقولات أساسية من أجل اية معرفة للواقع بداءة من الادراكات والتصورات الأولية »(٥) ، ويقبل « باختين » هذا المبدأ « الكانتى » رغم أنه يرفض لفظ « فوقى » فى العبارة . فعلى « الزمكانية » أن تمكن الادراك بأشكال الواقع الحقيقية وليس فقط فى مستواها الفوقى .

ويضيف هنا الى المصدر « الكانتى » التراث الماركسى فى فهم العلاقة بين العقل المدرك والواقع . وسوف يدمج فيما بعد الى هذين التيارين تيار الرومانسية الألمانية كما مثله « لسنج » وسوف يستعير

من الرومانسية الألمـانية مفهوم الحركة في العلاقة « الزمكانية » كما سيتبين لنـا . يتداخل اذن في وصف باختين لعلاقة الزمان بالمـكان ثلاث تيارات فلسـفية :

* التيار « التنويري » الذي يتمثل في امتداد « كسيرر » « لكانت » على أساس علم « نيوتن » الذي اكتشـف قوانين الجاذبية .

* تيار الرومانسية الألمـانية تحت تأثير « لسنج » .

* التيـار المـاركسي الذي لا يفصل بين المكان والزمان في العمـل الأدبي ، كما أنه يربط « زمكانية » العمل الأدبي «بالزمكانية» الموجودة في العالم خارج العمل .

ودمج التيـارات الثلاث يشـكل خصوصية فكر « باختين » النقدى ويفسر ربطه بين الأصول الفلسفية وفهم العمل الأدبي .

(ب) هكذا ينقلنا « باختين » من الجزء الأول لتعريفه الى الجـزء الثاني ، أي الى المعنى الأدبي « للزمكانية » . وهنا تبدأ الصـعوبة لأن « باختين » لا يخفي ازدواجية دلالة « الزمكانية » في العمـل الأدبي عنـدما يقـول :

« المصطلح خاص بالرياضيات ، ادخل وادمج على اساس نظـرية اينشتاين للنسبية . ولكن المعنى الخاص الذي اكتسبه (في الأدب) لا يهمنا الكثير . سـوف ندخله في تاريخ الأدب بالتقريب (وليس على الاطلاق) أي مجازيا »(٦) .

ويؤدى هذا الاستعمال « المجازي » الى ثلاث فرضيات سيعتبرها « باختين » مبادىء أولية للدراسة الأدبية .

* « للزمكانية » أهمية أساسية في دراسة الأنواع الأدبية .

* تساهم « الزمكانية » في تحليل صورة الانسان ، أي الشخصية في الأدب ، فالبطل الروائي « زمكانيا » في الأساس .

* « الزمكانية » مقـولة أساسية للشكل وللمضمون .

ورغم اقرار « باختين » « بمجازية » مفهومه ، نستطيع أن نستخرج منذ البداية ثلاث مبادىء ثابتة للدراسة سـوف نجدها في كل أعمـال

« باختين » . وتعتبر المعالم الأساسية « لزمكانيته » رغم الأصول المختلفة لتكوين رؤية الناقد :

١ ــ لا يجوز الفصل بين الزمان والمكان .

٢ ــ أولوية الزمان فى هذه العلاقة ، ويظهر الزمن كالمبدأ السائد للعمل الأدبى . وهنا يثبت « باختين » مبداين :

* الربط بين « زمكانية » العمل الأدبى و « زمكانية » العالم الخارجى المحيط به .

* أهمية القرن الثامن عشر الذى اكتشف الزمان التاريخى الواقعى الذى نجده فى أعمال « جوته » .

٣ ــ علاقة الزمان بالمكان علاقة جدلية . فازمان يساوى الحركة عند « باختين » ، حسب تعريف « أرسطو » . وسوف يؤلف بين هذا المفهوم التقليدى ونظرية « لسنج » للحركة ، ثم بينه وبين الجدلية الماركسية .

فكانت لدى «جوته» ، مثلا، قدرة خارقة فى «قراءة الزمان فى المكان» و « ملء الفراغ بشكل شمولية فى حالة تكوين ، أو فى حادث ، وليس فى شكل خلفية غير متحركة أو شيء معط ومكون »(٧) .

قد لخصنا الملامح الأساسية للتعريف بجذوره العلمية والفلسفية . ولكن مساهمة « باختين » الأساسية هى فى اكتشاف دور « الزمكانية » فى التعرف الملموس على « معطيات الجنس الروائى »(٨) ، لأن اكتشاف ثراء الابداع الفنى يعرف بالزمن التاريخى ، حسب قول « باختين » ، أكثر مما يفعله الفكر الفلسفى(٩) . ودراسة « باختين » عن **أشكال الزمان و « الزمكانية » فى الرواية** هى محاولة تهم الانتقال من « الثمار الكلى للحياة» letankdeleise الى الرواية الحقيقية ، عبر تاريخ الأشكال الروائية منذ العصر اليونانى حتى الرواية الحديثة .

٢ ــ التصوير الأدبى « للزمكانية » كمضمون للأعمال الأدبية :

يكرث « باختين » ٩ أجزاء من **أشكال الزمان و « الزمكانية » فى الرواية** (ص ٢٣٩ ــ ٣٨٣) للتطور التاريخى « للزمكانية » ، منذ الرواية اليونانية القديمة حتى رواية الغزل فى القرن الثامن عشر . فتتجزأ الدراسة كالتالى :

١ ــ الرواية اليونانيـــة (القديمة) ..

٢ ــ « أبو ليه » و « بترون » (المؤلفان اللاتينيان) .

٣ ــ سيرة الحياة والسيرة الذاتية (القديمتان) .

٤ ــ « الزمكانية » الفولكلورية « والاستبدال » التاريخى .

٥ ــ الرواية الفاروسية (فى العصور الوســطى) .

٦ ــ وظائف « النصاب » و « المهــرج » و « الابلة » فى الرواية (مكاهة العصور الوســطى) .

٧ ــ « زمكانية » « رابليه » .

٨ ــ الأساس الشعبى « الزمكانية » « رابليه » .

٩ ــ « زمكانية » رواية الغزل فى القرن الثامن عشر .

اما فى « المكان والزمان » ، وهــو الجزء الثالث لرواية التعلم فى **جمــاليات الإبداع الكلامى** (ص ٢٣٣ ــ ٢٦١) ، كما فى « الملاحظــات الختامية » **لجماليات الرواية ونظريتها** (ص ٣٨٤ ــ ٣٩٨) يظهر الفكر التركيبى « لباختين » الذى وصــل اليه بعــد تحليله التاريخى الطويل « للزمكانية » ..

يقدم « باختين » ، من خلال تحليله التاريخى « للزمكانيـــة » ، ما سماه « بالزمكانيات » النموذجية الثابتة التى تكون الأعمال الأدبيـــة فى تطورها ــ فنجد ضمن هذه « الزمكانيات » « اللقاء » ، « الطريق » ، « القصر » ، الخ ... فى الآداب القــديمـــة ، « حجيرة الجلوس » (الصالون) ، « المنزل » ، « المدينة الصــغيرة » ، « عتبة المنزل » ، الخ ... فى الروايات الحديثة . ويعطى « باختين » وصفا شيقا لهـــذه « الزمكانيات » دارســـا دلالاتها ، وايحاءاتها المختلفـــة حتى قيمهـــا التأثيرية والمجازية والرمزية*.

فيعتبر « اللقاء » « زمكانية » أساسية بفضل ما يتضمنه من توحد فى تحديد المكان والزمان معا ، مع اولوية الزمان وتكثيف القيمة الانفعالية فيه . اما « الطريق » فهو تصور شائع فى الأدب ، حرفيا (كما فى رواية « ابيكارسك » ، « دون كيشوته » ، الخ) ومجازيا بفضل استعاراته الدارجة ، مثــل « طريق الحياة » ، « طريق جديد » ، الخ . فموتيفا « الطريق » أســـاسية فى الأدب القديم الذى ترتبط فيه صــدف اللقـــاء بالحادث الروائى وتتشكل القصص المختلفة فى اطار الحبكة الأســـاسية

الواحدة ، ونجدها حتى القرن التاسع عشر فى رواية « النفوس الميتة » « لجوجول » . اما « القصر » فهو ايضا من « الزمكانيات » الشائعة ، بداية بقصر العصور الوسطى فى روايات الفاروسية حتى قصر الرواية التاريخية فى نهايات القرن الثامن عشر ، وفيما بعد ، الذى يخالطه الزمان بشكل اكثر الفة . وفى الرواية الحديثة ، نجد « حجرة الجلوس » الذى يتمركز فيها التقاء الزمان بالمكان فى رواية القرن التاسع عشر حيث يتمثل فيها طموحات العصر وسيادة المال ، عند « بلزاك » مثلا ، وهذا يختلف عن صدف «الطريق» اللازمانية فى الآداب القديمة . وفى «المدينة الصغيرة » ، تظهر وتسود الحياة العادية ، اليومية ، الذى لا يحدث فيها شىء ، عند « فلوبير » مثلا ، الا التكرار العادى الممل ، ونجدها كالمكان الأساسى فى الروايات الروسية عند « جوجول » ، « تورجينيف »، « تشيخوف » ، الخ . ويضيف « باختين » ملاحظات مثيرة حول « زمكانية » « عتبة البيت » التى تمثل ، حسب قوله ، زمن الأزمة والتحول فى الأدب . وهنا تبدو اهمية السلالم ، والطرقات ، والدهاليز ، فى روايات « دوستويفسكى » ، فى تمثيلها لزمن الأزمة ، بينما تعبر ساحات « تولستوى » الواسعة عن الدوام .

وتمتد بين هذه « الزمكانيات » الكبيرة ، كما يقول « باختين » ، و « زمكانيات » أخرى صغيرة علاقات شتى ووظائف مختلفة ، ينبغى أن تدرس على حداها فى كل عمل من الأعمال الأدبية .

« فللزمكانية » « كموتيفا » الدلالات والوظائف التالية :

- تنظم العمل الأدبى ، « فالزمكانية » تعقد وتفك الحبكة الروائيـة .

- تعتبر خاصتها المرئية « مركز الملموسية التصويرية » للعمل و « تجسيد الرواية بأشملها » ، كما تدور الدلالات كلها حولها ، فهى لحمها ودمها .

- تربط الوصفى بالسردى فى حركتهما . وهنا يأخذ « باختين » مثله عند « لسنج » : يكتمل وصف جمال « هلانة » فى « الالياذة » ليس فى جسد ذاته ، بل عبر تأثيره على شيوخ مدينة « تروبا » . تكتشف اذن علاقة الزمان بالمكان عن الحركة فى الثبات (١٠) .

- وتربط أخيرا « الزمكانية » بين العمل الأدبى والواقع .

٣ ــ « الزمكانية » كمبدأ لتنظيم العمل الداخلى :

تمتلىء قيم الأدب والفن « بالزمكانيــة » . « فالزمكانية » عنــد « باختين » مفهــوم شــامل فيقول : « يتشرب الفــن والأدب بالقيــم « الزمكانية » ، بدرجات وإبعاد مختلفة . مكل « موتيفا » وكل عنصر متميز للعمل الفنى يتقدم كاحدى هذه القيم(١١) » . فليســت الزمكانية مركــزا « للملموسية التصويرية » للرواية فقط : ان كل مجاز ادبى ، والشكل الداخلى للألفاظ ، وكنز الصــور المجازية ، تمتلىء بالقيم الزمكانية . وتعتبر هــذه العناصر الأدبية العلامة الوسيطة التى تساهم فى نقــل الدلالات المكانية الأولية داخل العلاقات الزمانية . مما وصل « باختين » الى منهج اســاسى للدراســة الأدبيــة وهــو علم العــلامات ، اى « السيميوطيقا » . فقد قال « باختين » : فى زمكانية الفن الأدبى يحدث الاندماج بين الدلائل المكانية والزمانيــة فى كل معقول وملموس . هنــا يتكثف الزمان ويصبح دسما ، مرئيا للفن ، وينغمس فى حــركة الزمان وذات التاريخ »(١٢) . ويعتبر أيضا هذا المبدأ عند « باختين » معيــارا لتقييم العمل الأدبى : فيرى الناقد عند « بلزاك » طاقة خارقة فى اكتشاف واظهار الزمان فى المكان ، جعلت من رواياته احدى قمم « الزمكانية » .

ويشير « باختين » الى فلسفة « كسيرر » للأشكال الرمزية فيمــا يخص ضرورة تحليل انعكاس الزمان فى اللغة ، بينما يلجأ الى « لسنج » للاشادة بادخال الحركة فى الثبات مع تدخلا الزمان والمكان ، من ناحيته ، الوصفى والسردى ، من الناحية الأخرى ، وهذا يعنى تداخل المجــرد والملموس .

وتبدو هنا اهمية العلامة . فللعلامة (اللفظ ، شــكلا وايقاعا ، المجاز ، الخ ....) وظيفة اساسية تتمثل فى ربط الملموس بالمجــرد ، كما يفصل مفهوم العلامة بين « زمكانية » العمل الأدبى و « زمكانية » الرياضــيات . فمقولات الزمان والمكان لا توجد فى الدراســة الأدبية للمقياس كما فى علوم الرياضة والفيزياء ، بل لضمان الاتصال بين الدائرة « الزمكانية » والدائرة الدلالية . ويظهر مفهوم آخر اســاسى فى فكر « باختين » النقدى ، وهو عنصر « التقييم » . ويصــل فى النهاية الى أن ... « الحواس مهمــا كانت يجب أن تأخــذ على عاتقها التجربة « الزمكانية » ، اى الشكل العلامى ((sormes'emiotipue)) ، كى تصبح جزءا من تجربتنا (وهى بالاضافة الى ذلك اجتماعية)(١٣) .

ويميز « باختين » الزمان فى داخل العلاقة الزمكانية . فهو الذى يعطى المكان دلالته الاساسية . ولكنه ايضا مبدأ جوهريا لتنظيم العمــل

الفنى والأدبى(١٤) . فللزمان اذن دورا فعالا على مستويى الشكل والمضمون ، كما انه يشكل النوع الأدبى ، ملامح البطل ، علاقة السرد بالوصف فى العمل الأدبى . فالقرن الثامن عشر هو الذى ترك لنا هذه الانجازات المهمة فى اكتشافه للزمان كسمة للمضمون ، ولكن أيضا كمبدأ للبناء والتنظيم . ويبدو ذلك فى الرواية — الغزل لهذا العصر (« تمش » ، « جسنر » ، وغيرهم من الروائين) . ومصدر اكتشاف الزمان يوجد فى تعرف « نيوتن » على قوانين الجاذبية العالمية التى عمقت رؤية الانسان للواقع ، وأثرت فى الأدب تأثيرا مباشرا(١٥) . وربما قد تأثر « باختين » هنا بكتابات « كسيرر » فى جماليات عصر التنوير .

وادراك الزمان كالمبدأ الأساسى « للزمكانية » يشكل الوعى بتاريخية الانجاز الفنى والأدبى . فلا يكتمل العمل الفنى والأدبى ، حسب باختين ، الا باكتشاف فاعلية الزمن وادخاله فى العمل . ولذلك اعتبر « باختين » أن « جوته » كان من أروع الكتاب (على عكس « روسو » ، رغم تعميق « روسو » للعلاقات الانسانية وعلاقات الانسان بالطبيعة فى رواياته « فروسو » لم يتعمق فى الوعى بالزمان) . فيقول « باختين » أن أعمال « جوته » الأدبية ذات « زمكانية استثنائية » : « كل شىء فى هذا العالم مكانى وزمانى ، كل شىء (فيه) زمكانية استثنائية »(١٦) .

فالشكل المرئى للرواية أساسيا ، ولا ينفصل بمجرى المعرفة لدى الكاتب — فلنظر الكاتب عمل ويجب أن يرتبط هذا العمل المرئى بالوعى بالحاضر والماضى والمستقبل ، لضمان الحركة فى علاقة الزمان بالمكان، والملموس بالمجرد ، والوصف بالسرد . فتتحول رقعة من المساحة الأرضية الى مكان تاريخى لحياة الانسان فمكان تاريخى للعالم(١٧) . « فروسو » ، على عكس « جوته » ، لم يتمكن من تحول الزمن الدائرى الى زمن تاريخى حقيقى .

والمثل الآخر العظيم الذى درسه « باختين » ، هو مثل كاتب النهضة الفرنسية الكبير ، « رابليه » (وكان « باختين » أستاذا متخصصا فى الأدب الفرنسى ، ويعتبر كتابه فى فرنسا نفسها من أعظم ما كتب عن « رابليه » ، رغم أجيال من المتخصصين الفرنسيين الذين كتبوا عنه) . وقد ابتكر « رابليه » فى القرن السادس عشر « زمكانية » انسان النهضة الجديد ، وتصل هذه « الزمكانية » للطوبائية لدير « تيليما » ، هذا المكان المثالى لسعادة الانسان الحر المتمكن من قدراته وجميع طاقاته الانسانية ، الى « زمكانية » رمزية لوجود الانسان برمته ، الى زمان ومكان طوبائى ، بلا حدود ولا نهاية ، كأعظم رمز للرؤية « الانسانية » Humaniste للنهضة(١٨) .

خاتمة لا تختم شيئا :

تعطى هكذا كتب « باختين » الكثير من الايحاءات الثمينة ، والملاحظات المثيرة ، مثل التى جمعناها فى اطار « الزمكانية » ، التى لم تكتمل دائما وتشير الى طرق عديدة لم تستثمر بعد رغم وعودها الثرية . وكان « باختين » نفسه يدرك هذا النقص ويتمنى استثمار جهوده فيما بعد ، واعيا بأن العلم لا يقف وأن اكتساب المعرفة عمل متواصل لتصحيح الخطأ وانجاز الصواب . ورأى هو الأول أن مفهومه « للزمكانية » غير كاف ، وكانت به الرغبة أن تتعمق فيه الدراسات المستقبلة للنقد الأدبى. وقد أنهى ملاحظاته فى **أشكال الزمان « والزمكانية » فى الرواية** بتصريح بالغ التواضع قائلا فيه انه لم يفعل الا انه ربط الزمان بالمكان الذين كانا يدرسا منعزلين « دون قصد زمكانى مدبر » ، وعبر عن الأمل أن « تطور العلم الأدبى المستقبلى هو الوحيد الذى سوف يقرر بأهمية وفياضة هـذا القصد »(١٩) .

ويبقى أن مثل هـذا التواضع ليس فى مكانه ، فانه يمثل بانجاز « باختين » الحقيقى ، سواء عبر كتاباته ، سواء فى تأثيره على النقد الأدبى المعاصر . فجدلية مفهوم « الزمكانية » قد أثريت وحدها فى أكثر من مجال للدراسات الأدبية ، منها التعمق فى فهم الأنواع الأدبية ومنها المبادىء الخاصة بنظرية الوصف المعاصرة وربط الوصف بالسرد فى النص الأدبى عبر حركة الزمان فى المكان . وتعتبر ملاحظات « باختين » فى البطل الروائى عبر « زمكانيته » أساسا لدراسة البطل كما ينظر له حاليا . فيدرس البطل اليوم ليس فقط من خلال صفاته النفسية ووضعه الاجتماعى فى القصة ، عاكسا حقائق العالم الخارجى حسب اجراءات المحاكاة ، بل كوحدة « علامية » للرواية تكون مركز الالتقاء بين نظام القيم او ايديولوجية المؤلف وتسلسل الأحداث كما تتمحور حول الحبكة الروائية . فالبطل اذن أساس الربط بين الرأسى من القيم والاختيارات، والأفقى فى التتابع الزمنى للسرد .

وهنا يبرز مفهوم آخر « لباختين » ، أساسى فى تنظيم العالم الفنى والأدبى ، وهو مفهوم « القيمة » أو « التقييم » . قد رأينا كيف لا ينبغى ان تنفصل « الدائرة الزمكانية » عن « الدائرة القيمية » فى العمل الأدبى . وكتابات أخرى « لباختين » تشير الى اهمية « التقييم » فى العمل الأدبى مثل دراسته فى « نظرية المنطوق » Theorie de l'euonce ومقاله فى « الخطاب فى الحياة وفى الشعر » (le discous dans le nie et dans le poesie) وقد أشار الناقد الفرنسى « فيليب هامون » الى أهمية هذا المفهوم والى تمكينه فى تطوير الدراسة الأدبية ، حينما قال فى كتابه

عن **النص والأيديولوجية** « أن باختين » هـو بالتأكيد أول منظر بـدا فى اسـتكشاف نظـرية الأدب التى تسـتند الى المعيـارى والقيمى Poetique du normatif et de l'axiolorioce (٢٠) وكتاب **النص والأيديولوجية** ، الصـادر فى باريس فى ١٩٨٤ ، ينطلق من نقـد التيار الشكلى فى النقد الأدبى معاتبا اياه لتجاهله للنظام الراسى القيمى للأعمال الأدبية كى يركز فقط على النظام الأفقى للقص . فالعمل الأدبى لا يفصل بين الرأس فى اختيارات القيم والأفقى فى تنظيم العمل وتشكيل عنـاصره ...

ويتبين هكذا كيف ساهم ، ومازال يسـاهم ، انجاز « باختين » فى ملء فجوى أسـاسية فى الدراسة الأدبية . فالنقـد الأدبى المعاصر يكتشف اليوم ما كان « باختين » قد اشار اليه منذ العشرينيات من ثغرتين اساسيتين فى النقد « الشكلى » :

- غياب الفرضيات الفلسـفية .
- تركيز البحث فى ايضاح تقنيات العمل الأدبى مع اهمال التنظيم نفسه لهذا العمل الذى يعتبر الدراسة الحقيقية للشكل .

ولذلك وقع هـذا النقد فى الوضـعية والعجز عن الفهم الحى ، الحقيقى للعمل الأدبى . ويتسع الأمل اليوم ، أن تتقدم الدراسات الأدبية نحو ربط « الزمكانى » بالقيمى ، والحاق تفاصـيل اجراءات العمـل الأدبى ووحداته بالسياق والدلالات التى تعطى له المعنى والحياة .

(هوامش)

١ ـ قد ترجم جمال شهيد **الملحمة والرواية** « لباختين » ـ أما محمـد برادة فترجم جزءا من كتاب **جماليات الرواية ونظريتها** فى **فصول** ، العدد الخاص عن « الأدب والأيديولوجيـة » ، ابريل / مايو / يونية ١٩٨٥ ، تحت عنوان « المتكلم فى الرواية » ، ص ١٠٤ ، بينما يقوم سيد البحراوى بترجمة نص « الخطاب فى الشعر وفى الحيـاة » ، وهو من أول كتابات الناقد فى الشعر واللغة بين المرسل والمتلقى والتقييم المشترك .

٢ ـ تودوروف ، **نقد النقـد** ، باريس ١٩٨٤ ، ص ١٠١ .

٣ ـ انظر باختين : **جماليات الابداعى الـكلامى** ، المقالة الأولى فى « المؤلف والبطـل » .

وتودوروف ، **نقد النقـد** ، ص ٩٦ .

٤ ــ **جماليات الرواية ونظريتها** ، ص ٢٣٧ .

٥ ــ نفس المرجــع ، ص ٢٣٨ .

٦ ــ نفس المرجــع ، ص ٢٣٥ .

٧ ــ **جماليات الابــداع الكلامى** ، ص ٢٣٢ .

٨ ــ **جماليــات الرواية** ، ص ٢٣٨ .

٩ ــ **جماليــات الأبــداع** ، ص ٢٣٤ .

١٠ ــ **جماليــات الرواية** ، ص ٣٩٢ .

١١ ــ **نفس المرجــع** ، ص ٣٨٤ .

١٢ ــ **نفس المرجــع** ، ص ٢٣٧ .

١٣ ــ **نفس المرجــع** ، ص ٣٩٨ .

١٤ ــ **جماليــات الابداع** ، ص ٢٣٣ .

١٥ ــ **نفس المراجــع** ، ص ٢٥١ .

١٦ ــ **نفس المرجــع** ، ص ٢٤٩ .

١٧ ــ **نفس المرجــع** ، ص ٢٤١ .

١٨ ــ الى جانب اجزاء الدراسات المذكورة الخاصــة برابليه ، انظر كتاب باختين عن **رابليه والثقافة الشــعبية لزمنه** .

١٩ ــ **جماليــات الرواية** ، ص ٣٩٨ .

٢٠ ــ فيليب هامون : **النص والايديولوجية** ، ص ١٩ .

اما اهم اعمــال باختين ظهر فيهــا مفهوم القيمة (والتقييم) اى « نظرية المنطوق » و « الخطاب فى الحياة وفى الشعر » ، توجد ترجمتها بالفرنسية فى : تودوروف : **ميخائيل باختين ، المبـدا الحوارى وكتابات دائرة باختين** ، باريس ١٩٨١ .